نشأة وتطور الاتصال الإنساني
من الاتصال اللفظي إلى الاتصال التفاعلي

الدكتور عبدالله الزعيم
دكتور في اللسانيات، التواصل والترجمة
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان
المغرب

الملخص:

يعد الاتصال ظاهرة اجتماعية تؤثر وتتأثر بمكونات السلوك الفردي وبالعوامل المؤثرة على طرفي عملية الاتصال الهادفة لنقل وتبادل المعلومات والمعاني المختلفة من خلال قنوات مخصصة ومعينة.

ومرت وسائل الاتصال بالعديد من المراحل التاريخية المختلفة عبر مئات السنين، فقد انطلقت من عصر الاتصال الشفهي وظهور اللغة، إلى عصر الكتابة وظهور الحروف للتعبير عن المقاطع الصوتية، ثم مرحلة ظهور الطباعة على يد يوهان غوتنبرغ في القرن الخامس عشر، وصولا إلى عصر الاتصال الجماهيري مثل الإذاعة والسينما والتلفزيون والهاتف والفاكس ...، وبروز الاتصال التفاعلي مثل شبكة الأنترنت والأقمار الصناعية ومختلف وسائل التواصل الاجتماعي الرقمية.

كلمات مفاتيح: الاتصال – اللغة – عصر الكتابة – عصر الطباعة – الاتصال الجماهيري.

Abstract:

Communication is a social phenomenon that affects and is affected by the components of individual behavior and the factors influencing both parties of the communication process aimed at transferring and exchanging information and various meanings through specific, dedicated channels.

The means of communication passed through many different historical stages over hundreds of years. They started from the era of oral communication and the emergence of language, to the era of writing and the emergence of letters to express audio syllables, then the stage of the emergence of printing at the hands of Johann Gutenberg in the fifteenth century, leading to the era of communication. Mass communication, such as radio, cinema, television, telephone, fax..., and the emergence of interactive communication such as the Internet, satellites, and its various digital social media..

Keywords: **communication – language – the era of writing – the era of printing – mass communication**

تقديم:

ارتبط تطور الاتصال عبر التاريخ بتطور الإنسانية وتطور أساليب وصور التواصل داخل مجتمع معين، ففي كل حقبة اتصالية معينة كانت تظهر أنماط وأساليب معينة تعكس الطابع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والثقافي السائد في تلك المرحلة.

وتتجلى أهمية وسائل الاتصال في كونها وسيلة للتعبير عن الحقائق، والآراء، ونقل المعلومات من م، المساهمة في تثقيف الأفراد وتوسيع مداركهم وآفاقهم. المساعدة في التغلّب على الحواجز اللغوية وعملية التواصل مع الأفراد بشكل شخصي، بالإضافة إلى المساهمة في مواكبة أحدث التقنيات، والاكتشافات، سهولة الاطّلاع على إنجازات المجتمعات الأخرى، والوصول إليها للاستفادة منها.

أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى ما يلي:

أولا: تعريف مفهوم الاتصال لغة واصطلاحا مع ابراز الفرق بين الاتصال والتواصل.

ثانيا: ابراز مراحل التطور التاريخي للاتصال ودوره في الوصول لمجتمع المعرفة والتكنولوجيا.

الإشكالية:

ارتبط الاتصال على مر التاريخ بالبيئة التي يعيش فيها الإنسان وتطور بتطور وسائل الاتصال، وعليه تتحدد مشكلة الدراسة في الإجابة على الأسئلة التالية:

ما هو الاتصال لغة واصطلاح؟ ما هو الفرق بين الاتصال والتواصل؟ وماهي العناصر المكونة للعملية الاتصالية؟

ماهي هي أبرز العوامل التي ساهمت في التطور التاريخي الاتصال الإنساني؟ ثم ما هو الدور الذي تقوم به وسائل الاتصال في ازدهار المجتمعات وانفتاحها على المعرفة والعلوم والتكنولوجيا؟

المنهج:

يعتمد المقال منهجا تاريخيا وتحليليا من خلال إبراز التطور التاريخي لوسائل الاتصال الإنساني وصولا إلى الاتصال التفاعلي مع تحليل مختلف الأدوار التي تقوم بها وسائل الاتصال في ازدهار المجتمعات وانفتاحها على المعرفة والعلوم والتكنولوجيا.

خطة البحث:

قسمت البحث إلى محورين:

- المحور الأول إلى نشأة الاتصال الإنساني
- المحور الثاني تطور الاتصال الإنساني عبر التاريخ.

وختمته بخاتمة موجزة، مع ذكر المراجع المعتمدة في الدراسة.

المحور الأول نشأة الاتصال الإنساني:

يعد الاتصال ضرورة للوجود والتفاعل والمشاركة، وفاعلية للحياة والتطور، وسمة من سماتها، وعليه وبه قامت وتطورت المجتمعات، أفراد أو جماعات[1]، وتأخذ الاتصالات دورا وحيزا كبيرا في الحياة اليومي للأفراد والمؤسسات بصورة عامة، نظرا لكونها الوسيلة الأساسية في تحقيق التفاعل مع الآخرين للوصول إلى الأهداف والنوايا المطلوب تحقيقها على مختلف المستويات.

وبالتالي سنخصص هذا المحور لتحديد مفهوم الاتصال، وأخيرا التطرق لمختلف مكونات عملية الاتصال.

الفقرة الأولى: تعريف الاتصال.

تشير كلمة اتصال إلى معاني كثيرة لدى العديد من الناس، فالبعض ينظر إليها على أنها علم والبعض الآخر يعتبرها نشاط، ويرى الأخر أنها فن أو أنها نشاط عفوي لا شعوري غير أن الاتصال هو نتيجة لمجموع كل هذه العناصر، فهو علم يقوم على قواعد معينة وفن يحتاج إلى مهارة وذكاء، كما أنه قد يكون عفويا أو مخطط حسب ما تقتضيه الحاجة.

وللإحاطة أكثر بمفهوم الاتصال سنتطرق للمعنى اللغوي والاصطلاحي للاتصال.

أولا: المعنى اللغوي للاتصال:

تعود كلمة " اتصال" في لغتنا العربية إلى المادة (وصل)، "وصلت الشيء وصل وصيلة، والوصل ضد الهجران، والتواصل ضد التصارم" و"التصارم هو التقاطع" بمعنى القطيعة وعدم التواصل واتصل الشيء بالشيء " لم ينقطع" "ويقال بينهما وصلة أي اتصال وذريعة" والذريعة هي الوسيلة[2].

ويفضل الكثير من اللسانيين العرب مقابلة المصطلح communication بالتواصل بدل من الاتصال، ذلك لأن كلمة التواصل تدل على المطاوعة والمشاركة والتفاعل، بخلاف الكلمات الأخرى التي تفيد الاتصال من جانب واحد دون الآخر [3]

أما من حيث تطور دلالة المصطلح communication في الثقافة الغربية فقد ورد على الشكل التالي :

تعود كلمة الاتصال في اللغات الأوروبية إلى الشيء المشترك، منها اشتقت كلمة commune التي كانت تعني في القرنين العاشر والحادي عشر الجماعة المدنية، بعد انتزاع الحق في الادارة الذاتية للجماعات في كل من فرنسا وايطاليا، قبل أن تكتسب الكلمة المعنى السياسي والايديولوجي. أما الفعل اللاتيني لجذر كلمة communicare معناه يذيع أو يشيع، من هذا المعنى أشتق من اللاتينية والفرنسيةcommuniqué الذي يعني بلاغا رسميا أو بيانا أو توضيحا حكوميا[4]

وقد ظهر مصطلح communication في اللغة الفرنسية في النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي، وكان يدل على " شارك في "، ويقول ايفيس فانكين: "تواصل communiquer" والتواصل communication ظهرتا في النصف الثاني من القرن الرابع عشر ميلادي، فالمعنى الأصلي هو "شارك في" قريب جدا من اللاتينية والذي يعني الوضع داخل وحدة والوجود في علاقة. وهذا الوضع هو داخل وحدة ما يحمل وحدة الأجسام [5]

ونستنتج مما سبق أن الاتصال في شكله العام هو "الحدث الحاصل بين مرسل في نقطة معينة، ومستقبل في نقطة أخرى، حيث يقوم المرسل بإرسال رسالة إلى المستقبل تتضمن موضوعا محددا عبر قناة يختارها وتحيل إلى مرجع مناسب.

واشتقت منها كلمة Commune (البلدية) التي كان يقصد بها في القرنين العاشر والحادي عشر "الجماعة المدنية"، أما الفعل communiquerفمعناه أذاع، وأشاع الأمر، واشتق منه communiquéالذي يعني بلاغا رسميا بيانا أو توضيحا حكوميا.

ثانيا: المعنى الاصطلاحي للاتصال

لو بحثنا في الأدبيات المتخصصة، العربية والانجليزية والفرنسية عن معنى الاتصال اصطلاحا لما عترنا على تعريف وحيد لمصطلح الاتصال، فالتعريفات كثيرة، ولكنها مع ذلك متقاربة في المعنى الأساسي العام[6]، وهذا التعدد ناتج عن تعدد المقاربات التي يعتمدها أصحابها في بناء مفهوم الاتصال.

فالاتصال Communication يعني اصطلاحا تبادل إشارات بين مصدر بث ومتلقي "أي هو عملية نقل معلومات من **مرسل** إلى **مستقبل**"[7]،

عرف ماكفارلاند Macfor land الاتصال على أنه عملية تفاعل ذات مغزى بين الأفراد[8].

وحسب Hannak فإن الاتصال يعني العملية التي يتفاعل بواسطتها الأفراد بهدف التكامل بينهم والتكامل بين الفرد ونفسه.[9]

أما ميريهو Merrigue فقد عرف الاتصال على أنه سلوك مقصود من جانب المرسل ينقل المعنى المطلوب إلى المستقبل و يؤدي الإستجابة بالسلوك المطلوب[10] .

بدوره عرف اللساني الفرنسي "جون ديبوا" عرف التواصل بأنه: " تبادل كلامي بين مكلم محدث للفوظ موجه إلى متكلم أخر، وهذا المخاطب يلمس الاستماع إليه أو جوابا ظاهرا أو باطنا، وذلك حسب نوع ملفوظه"[11].

ويبدو من خلال التعريفات أن للتواصل وظيفتين، هما:

-**الوظيفة الأولى** : الوظيفة المعرفية وتتمثل في نقل الرموز الذهنية وتبليغها زمانا ومكانا بوسائل لغوية وغير لغوية.

– **الوظيفة الأخرى** : الوظيفة التأثيرية الوجدانية، وتقوم على تقويم العلاقات الإنسانية وتفعيلها على المستوى اللفظي وغير اللفظي.

ثالثا: الفرق بين الاتصال والتواصل:

لابد من الإشارة إلى أن هناك فرقا بين مفهومي: الاتصال والتواصل، قد يرى عدد من الدارسين أن الاتصال والتواصل مفهومان لمعنى واحد، إلا أن ثمة فرق بين هذين المفهومين، على الرغم من أنهما مشتركان في الجذر اللغوي (و ص ل)، وكلاهما مصدر،

فالأول: (اتصال) للفعل المزيد (اِتَّصَلَ) على وزن (افتعل)،

أما الآخر (تواصل) للفعل المزيد (تَوَاصَلَ) على وزن تفاعل،

ومن هنا، ففي الاتصال هناك رغبة من أحد الطرفين تجاه الآخر، قد يستجيب ويتفاعل مع الرغبة، أو أنه قد يرفض الاستجابة تجاه تحقيق أهداف معينة،

أما التواصل فهو مصطلح يشير إلى علاقة متبادلة بين طرفين، أو بتعبير آخر: يشير إلى انفتاح الذات على الآخر في علاقة حية، لا تنقطع حتى تعود من جديد، وهذا يدل على أن عملية التواصل هي أساس العلاقات الإنسانية والتفاهم الإنساني، وهي العملية التي يتم بمقتضاها تكوين العلاقات بين أعضاء المجتمع، وتبادل المعلومات، والأفكار والتجارب فيما بينهم[12].

وكخلاصة للتعريفات السابقة يمكن القول أن الاتصال هو عملية إنتاج ونقلٍ للمعلومات وتبادلٍ للأفكار والآراء والمشاعر من إنسانٍ إلى آخر؛ بهدف التأثير فيه وبأفكاره وإحداث استجابة.

الفقرة الثانية: مكونات عملية الاتصال

مهما تعددت أشكال عملية الاتصال والتواصل وإمكاناتها ومجالاتها فإن عناصرها تكاد تكون ثانية في هذه العملية، ويمكن توضيحها كما يلي:

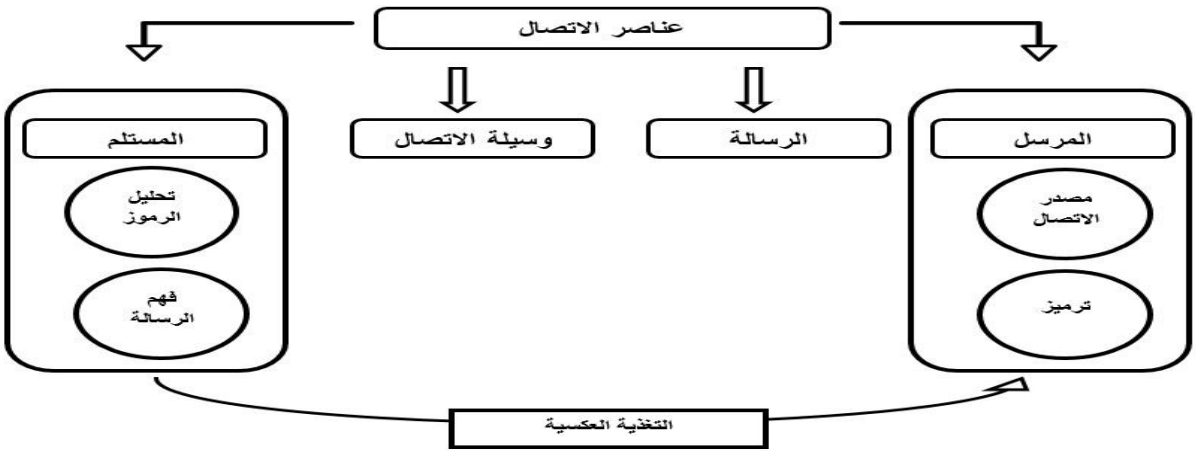

13

- المرسل (l'émetteur)(Destinateur).
- المرسل إليه (أو الملقي) (Destinataire) (Récepteur).
- الرسالة (Le message).
- القناة (Le canal).
- التشويش (Les parasites) (Bruit).
- السياق (Le Référent) (Contexte).
- رد الفعل: الاستجابة، رجع الصدى (Le feedback) (Rétroaction).
- الشفرة أو السنن (Le Code).

أولا: المرسل Destinateur

وهو القائم بالاتصال، وقد يكون فردا كما في الاتصال الذاتي والاتصال الشخصي، كما قد يكون أكثر من فرد كما في الاتصال الجماعي والاتصال الجماهيري[14].

وفي بعض المواقف التواصلية، يمكن أن يكون المرسل مرسلا غليه في نفس الوقت وذلك عندما يكون الحوار أو الخطاب موجها للذات، وهو ما يسمى بالمونولوج (Monologue).

ومن المعروف أن المرسل هو أول أطراف العملية الاتصالية، وهو صاحب الفكرة[15] يقوم بوضع أفكاره في رموز معينة (كود)، ولا بد أن تكون الفكرة واضحة في ذهنه أولا، وأن يحسن التعبير في هذه الفقرة، والأهم من هذا كله مراعاة ظروف وخبرات المستقبل، فالمرسل أو القائم بالاتصال الناجح هو القادر على تساءل مجال الخبرة المشتركة مع المستقبل حتى يستطيع المستقبل استيعاب الفكرة بسهولة والتفاعل مع مضمونها[16].

ويخلط الكثيرون بين المرسل ومصدر الرسالة حيث يعتبرون المصدر هو نفسه المرسل، والحقيقة أن المرسل هو الشخص أو الجهة التي تقوم بصوغ الرسالة التي يريد بثها للمستقبل، وحتى تصاغ الرسالة ينبغي للمرسل أن يرجع غلى المصادر ليأخذ منها رسالة.

ثانيا: الرسالة Message

وهي المضمون والفكرة المراد توصيلها إلى المتلقي، وهي جوهر عملية الاتصال، فالإنسان يرسل ويستقبل عمليات ضخمة ومتنوعة من الرسائل، بعض هذه الرسائل يتسم بالخصوصية (شكل، الحركة والإشارة والابتسامة والنظر) وبعضها الأخر يتسم بالعمومية مثل الندوات والمحاضرات والمؤتمرات ووسائل الصحف والمجالات والتلفزيون) بعض الرسائل يتم نقلها بقصد ورسائل أخرى يتم التعرض لها بالمصادفة وكلما كان هناك تفاعل وفهم مشترك بين المرسل والمتلقي كلما اكتسبت الرسالة فاعلية أكبر[17].

ثالثا: المرسل إليه/المتلقي Récepteur

المتلقي هو الفئة المستهدفة من عملية الاتصال والتواصل وقد يكون المستقبل فردا أو مجموعة أشخاص، ويقوم المتلقي بدراسة الرسالة من خلال رموزها (Décodage) من أجل التفاعل مع مضمونها.

فالمتلقي قد يكون فردا كما في الاتصال الشخصي، والاتصال الذاتي الذي يكون فيه الفرد مرسل ومستقبلا في آن واحد، كما أن المتلقي قد يكون أكثر من فرد كما في الاتصال الجماعي والاتصال الجماهيري[18].

رابعا: الوسيلة Le Canal(قناة الاتصال)

وهي القناة التي من خلالها تنتقل الرسالة من المرسل إلى المرسل غليه ويحتاج أي اتصال إلى وسيلة لتوصيل الرسالة، وقد تكون صناعية كما في الاتصال الجماهيري الذي يعتمد على وسائل تكنولوجية[19].

وقد ركز **جاكسون** عند حديثه عن مكونات العملية اللسانية والفعل التواصلي اللفظي على هذا العنصر، بحيث أكد على أن الرسالة تتطلب قناة مادية ورابطة نفسية بين المرسل والمرسل إليه، لأن الاتصال، حسب منظوره، يوازي الوظيفة الاتصالية (الذاتية) إذ يكون الهدف توطيد التواصل والحفاظ على استمراره[20].

خامسا: التشويش Bruit

التشويش هو أي عائق يحول دون القدرة على الإرسال أو الاستقبال وينقسم التشويش إلى نوعين[21]:

أ: التشويش الميكانيكي

ويعني أي تداخل فني – بقصد أو بغير قصد–يطرأ على إرسال الإشارة في رحلتها من المرسل إلى المتلقي، مثل وجود عيوب في صوت المرسل، أو استخدام ترددات غير مناسبة في الإرسال، أو ضعف حاسة السمع أو البصر عند المتلقي.

ب: التشويش الدلالي

يحدث داخل الفرد حين يسيء الناس فهم بعضهم البعض لأي سبب من الأسباب، وحين يعطي الناس معاني مختلفة للكلمات، وعند استخدام كلمات وعبارات مختلفة للتعبير عن نفس المعنى.

وبالجدير بالذكر أن التشويش يقوم بوظيفة عاتق له قال، وكلما زاد التشويش قلت فعالية الرسالة، وكلما قل التشويش زادت فعالية الرسالة.

سادسا: الشفرة أو القانون Code

القانون أو الشفرة هو مجموعة من القواعد المشتركة بين عنصري الاتصال المرسل والمرسل إليه، والذي بدونه لا يمكن أن تتم عملية فهم الرسالة أو تأويلها22. ويتميز القانون أو الشفرة بكونه يرسل مجموعة من العلامات والقواعد من طرف المرسل يعمد بواسطتها إلى تكوين رسالته بكيفية تركيبية أو ترميزية، وفي المقابل يقوم المتلقي باستقبال تلك العلامات (Signes) ويتعرف عليها بطريقة تفكيكية حتى يتمكن من فك رموزها بسهولة.

وهاتان العمليتان لا تتمان بطريقة صحيحة إلا إذا كان المرسل والمتلقي يشتركان نفس المخزون على مستوى اللغة المتواصل بها.

سابعا: السياق (بيئة الاتصال) Contexte

لا يمكن حدوث عملية اتصالية/تواصلية دون وجود سياق، فأحيانا يكون السياق طبيعي غير ملاحظ، وفي أحيان أخرى يتولد الانطباع بضرورة بذل الجهد لفهم هذا السياق.

فالسياق هو البيئة الاجتماعية التي تمدنا بقواعد وأحاكم للتفاعل معها، وتتمثل البيئة الاتصالية في الزمان والمكان والأشخاص وكل ذلك يؤثر في عملية الاتصال[23].

ويلعب السياق الذي يتم فيه الاتصال دورا فعالا في زيادة فرص نجاح العملية الاتصالية، فكلما كان السياق يتصف بجوانب مشتركة بين المرسل والمتلقي، كلما كانت العملية التواصلية ناجحة.

ثامنا: رد الفعل/ رجع الصدى/ الاستجابةFeed – Back

رجع الصدى عنصر هام من عناصر الاتصال، فهو الذي يحقق دائرية الاتصال حيث يصبح المتلقي مرسلا، ولذلك يسميه البعض "التغذية المرتدة""، كما يسميه البعض الآخر رد

الفعل، وأيا كانت التسمية فالمقصود به يقصد برجع الصدى إعادة المعلومات للمرسل حتى يستطيع أن يقرر ما إذا كانت الرسالة حققت أهدافها من عدمه[24].

وهناك نوعان من الاستجابة:

- **الاستجابة العلنية:** وهي التي يمكن ملاحظتها واكتشافها وهي استجابة عامة.
- **الاستجابة النفسية:** والتي لا يمكن ملاحظتها بسهولة ومن الصعب اكتشافها.

وهنا يجب أن نفرق بين التأثير ورجع الصدى، فالتأثير يتمثل في النتائج المترتبة على الاتصال، وهل أدى إلى تحقيق الهدف منه أم لا؟

أما رجع الصدى فيتعلق بمضمون الاتصال ومدى استجابة المتلقي بمضمون الاتصال وهل وصلت الاستجابة للمرسل أم لا.

المحور الثاني: تطور الاتصال الإنساني عبر التاريخ.

تعد العناية بظاهرة الاتصال من أقدم الاهتمامات الفكرية والاجتماعية، إذ ترجع أصولها غلى قدم الوجود البشري وذلك لأن الإنسان كائن اجتماعي بطبعه، وتجبره صفة التعارف على الاتصال بغيره بطرق وأشكال متعددة، وتتطور بتعاقب العصور وانتقال الأجيال[25].

وتستخدم نظرية الانتقالات Theory of transitions لتفسير المراحل المتميزة لتطور الاتصال الإنساني حيث كان لكل مرحلة نتائج عميقة.

يقسم "ماكلوهان" في رأيه تطور التاريخ الإنساني إلى أربع مراحل[26]:

أ- المرحلة الشفوية: تعتمد كلية على الاتصال الشفهي، مرحلة ما قبل التعلم أي المرحلة القبلية وقد استغرقت معظم التاريخ البشري.

ب- مرحلة كتابة النسخ: التي ظهرت بعد هومر في اليونان القديمة واستمرت ألفي عام.

ج- عصر الطباعة: من سنة 1500 م إلى سنة 1900 تقريبا.

د- عصر وسائل الإعلام الإلكترونية: من سنة 1900 م تقريبا حتى الوقت الحالي.

ويقول "ماكلوهان" أن التغير الأساسي في التطور الحضاري منذ أن تعلم الإنسان أن يتصل كان من الاتصال

"الشفهي" إلى الاتصال "السطري" ثم إلى الاتصال "الشفهي" مرة أخرى.

الفقرة الأولى: عصر نشأة اللغة والاتصال الشفهي

تعد اللغة الوسيلة الأولى للتواصل بين المجتمعات الإنسانية عبر تاريخها الطويل، وأداة نقل الأفكار أو التعبير بالإشارات والصور والأشكال، وهي أهم ما يميز البشر عن باقي المخلوقات الأخرى باعتبارها ظاهرة فكرية مرتبطة بهم دون غيرهم من الكائنات الحية.

وبالتالي أصبحت اللغة وسيلة لإقامة علاقات اجتماعية بين الإنسان باعتبارها نشاطا اجتماعيا يستجيب لحاجة الأفراد للتواصل مع بعضهم البعض [27]

_ المفهوم اللغوي: اللغة مشتقة من لغا يلغو لغوا، وأما في الاصطلاح فقد عرفها مصطفى الغلاييني في كتاب جامع الدروس العربية: "اللغة هي ألفاظ يعبر بها كل قوم عن مقاصدهم"، وقال عبدالستار عمر: "اللغة هي كل نطق أو كتابة أو إشارة يعبر بها كل قوم عن مقاصدهم"، وقال أرسطة: "اللغة هي الرمز " ولكن أشهر التعريفات ما ذكره ابن جني إن اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم" [28].

وللأمانة العلمية لم يستطع العلماء التوصل إلى رأي قاطع في هذا الموضوع، إلا أن هناك العديد من النظريات التي حاولت تفسير نشأة اللغة، ومن أبرزها [29]:

أولا: نظرية التقليد والمحاكاة.

يرى أصحاب هذه النظرية أن اللغة الأولى نشأت عن طريق محاكاة الإنسان لأصوات الطبيعة كالبرق والرعد وخرير المياه وأصوات الحيوانات، يقول ابن جني "وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها انما هو من أصوات المسموعات كذوي الريح وحنين البرق وخرير المياه ونعيق الغراب وصهيل الفرس ونحو ذلك ثم ولدت اللغات فيما بعد ".

ثانيا: نظرية الإلهام الإلهي – التوقيفية:

يرى أصحاب هذه النظرية أن اللغة الإنسانية إلهام، ووحي من الله _عز وجل_ لا يَدَ للإنسان في وضعها؛ فهو أعجز من ذلك؛ فهي _ إذاً _ توقيفية لا مجال للاجتهاد فيها.

وبالتالي فالله سبحانه وتعالى لقن آدم عليه السلام كل شيء يتعلق باللغة نحو تقطيع الأصوات وتركيب الكلمات ووضعها بإزاء معانيها وممن قال بهذا الرأي ابن فارس حيث قال رحمه الله: (أقول: إن لغة العرب توقيف، ودليل ذلك قوله _ جل ثناؤه _: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾. سورة البقرة الآية 31، فكان ابن عباس يقول: علم الأسماء كلها. وهذه هي التي يتعارفها الناس من دابة، وأرض، وسهل، وجبل، وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها[30].

وقد اعتمد غير المسلمين على أدلة نقلية؛ فقد ورد في التوراة أن: "الله جبل من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها". سفر التكوين[31]19: 2 .

ثالثا: نظرية الحواس عند ماك لوهان مارشال Mac Luhan

وفقا لما يقول "ماكلوهان"، فإن الناس يتكيفون مع الظروف المحيطة عن طريق توازن الحواس الخمس السمع، البصر، اللمس، الشم والتذوق) مع بعضها البعض، وكل اختراع تكنولوجيا جديد يعمل على تغيير التوازن

بين الحواس فقبل اختراع "جوتنبرغ" للحروف المتحركة في القرن الخامس عشر كان التوازن القبلي القديم يسيطر على حواس الناس، حيث كانت حاسة السمع هي المسيطرة [32].

وكان الاتصال الشفهي هو الرابطة مع الماضي وكانت المعاني ذات المستويات المتعددة هي الطابع العام وهي معاني كانت قريبة جدا من الواقع، وكلمة الإنسان ملزمة، وذاكرته قوي جدا والصورة الذهنية التي تصاحب أفكاره سمعية، فهو يستخدم كل حواسه، ولكن في حدود الصوت، ونظرا

لأن الناس في ظل هذا النظام كانوا يحصلون على معلوماتهم أساسا عن طريق الاستماع إليهم من أناس آخرين، فقد اقترب الناس من بعضهم البعض في شكل قبلي، وقد فرض عليهم أسلوب حصولهم على المعلومات أن يؤمنوا بما(يقوله الآخرون لهم بشكل عام، لأن تلك هي المعلومات الوحيدة المتوافرة لهم (فالاستماع كان يعني الإيمان)[33] .

الفقرة الثانية: عصر الكتابة

استغرق الإنسان آلاف السنين حتى توصل إلى القدرة على استخدام اللغة واستغرق الأمر عدة قرون حتى أصبحت الكتابة إحدى حقائق الحياة الإنسانية حيث تم الانتقال من الكتابة التصويرية عن طريق الصور والرسومات المعبرة إلى الكتابة الرمزية التي تستخدم حروف بسيطة للتعبير عن أصوات محددة، ثم الكتابة الألفباتية التي يمكن تحديد تاريخها بالألف الأول قبل الميلاد في منطقة الشرق الأدنى القديم:

أولا: الكتابة التصويرية:

كانت الرموز التصويرية هي الخطوة الأولى في تطور الكتابة، ولكنها لم تبدأ غلا بعد فترة من استقرار نظام الزراعة، وكان أهم أسابا تطوير الكتابة هو حاجة النفس إلى وسائل لتجيل حدود الأرض والملكية وعمليات البيع والشراء.

وكانت الكتابة التصويرية تستخدم بشكل رئيسي في تزيين المقابر والمعابد والآثار، وبعد زيادة انتشار الكتابة التصويرية وزيادة تبسيطها خرج من باطنها أسلوب الكتابة الهيروغليفية.

ثانيا: الكتابة على أساس النطق.

طور السومريون (العراقيون) نمط أخر من الكتابة التي تعتمد على الرموز تعكس أصوات محددة، ففي حوالي عام 1700 قبل الميلاد توصل السومريون إلى فكرة أن يعبر كل رمز عن صوت محدد بدلا من أن يعبر عن فكرة أو شيء، وكان ذلك هو الخطوة الأولى في تطوير الكتابة الصوتية، وقد ساعد هذا التطور على تسهيل ومعرفة القراءة والكتابة[34].

ثالثا: الكتابة الالفباتية.

ظهرت الكتابة الألفبائية (التي تعتمد على الحروف) منذ حوالي سبعمائة عام قبل الميلاد وانتشرت بسرعة نسبية في أنحاء العالم القديم، وبعد عدة قرون وصلت إلى بلاد الإغريق، وتعتمد فكرة الكتابة الألفبائية على استخدام رموز الحروف للتعبير عن الأصوات الساكنة والمتحركة بدلا من المقاطع الصوتية، وكان ذلك تقدما كبيرا لأن عدد الحروف قد نقص كثيرا إلى أقل من مائة رمز، واليوم على سبيل المثال، لدينا 26 حرفا هجائيا في اللغة الانجليزية و28 حرفا في اللغة العربية، و26 حرفا في اللغة الفرنسية[35].

وفي هذا الصدد يرى ماكلوهان أن مجتمعات ما قبل التعليم كانت تحتفظ بالمضمون الثقافي في ذاكرة أجيال

متعاقبة، ولكن تغير أسلوب تخزين المعرفة حينما أصبحت المعلومات تختزن عن طريق الحروف الهجائية وبهذا

حلت العين محل الأذن كوسيلة الحس الأساسية، التي يكتسب بفضلها الفرد معلوماته، وسهل الكلام البشري (الذي

(تجمد زمنيا) الآن بفضل الحروف الهجائية إقامة إدارات بيروقراطية، واتجاهات قبلية [36].

وختاما تُشكِّل الكتابة في نظر ماكلوهان مرحلة انتقال حاسمة في تاريخ البشرية؛ إذ أزاحت هيمنة الاتصال السمعي لصالح الاتصال المرئي: بروز الثقافة المرئية بعد الثقافة السمعية.

الفقرة الثالثة: عصر الطباعة

انتقلت الإنسانية إلى عصر الطباعة الذي استمر من عام 1500 وحتى عام 1900 تقريبا، وقبل عقود قليلة من قيام الرحالة كريستوف كولومبوس، برحلته الشهيرة لاكتشاف القارة الأمريكية، صدر أول كتاب مطبوع باستخدام طريقة سك المعادن لطباعة الحروف إلى جانب الكتابة.

وتعد الطباعة أحد أبرز الابتكارات البشرية في كل العصور وقديما كان إنتاج الكتب قبل ظهور الطباعة ثم عن طريق النسخ اليدوي، ومع أن العديد من هذه الكتب القديمة كانت تحفا فنية عظيمة،

غير أن عملية النسخ اليدوي غالبا ما كانت عرضة لحدوث أخطاء، ومع ذلك أحدثت الطباعة تغييرا مذهلا، حيث أصبح من الممكن إنتاج ألاف النسخ من الكتاب الواحد بقدر كبير من الدقة والسرعة.

وقد أكمل اختراع "جوتنبرغ" المطبعة في ألمانيا سنة 1444 ثورة الحروف الهجائية، فأسرعت الكتب بعملية فك الشيفرة التي نسميها قراءة، وتعدد النسخ المتطابقة، وساعد المطبوع على النشر الفردي لأنه شجع –كوسيلة أو أداة شخصية التعلم المبادرة والاعتماد على الذات، ولكن عزل المطبوع البشر فأصبحوا يدرسون وحدهم، ويكتبون وحدهم، وأصبحت لهم

وجهات نظر شخصية عبروا بها عن أنفسهم للجمهور الجديد الذي خلقه المطبوع وأصبح التعليم الموحد ممكنا.

وتعد نقطة التحول في نشأة الطباعة في العالم الغربي هي أن الورق حل مكان المخطوطات في العالم الإسلامي خلال القرن الثامن الميلادي نقلا عن الصينيين ثم انتشر الورق في أوروبا بعد فتح العرب للأندلس، ولم يفقد رجال الدين والقادة والعلماء وكتبته المخطوطات احتكارهم للقراءة والكتابة إلا بعد اختراع المطبعة في القرن الخامس عشر[37].

وارتبط تطور الصحافة في هذه المرحلة باختراع الطباعة، ويتفق معظم المؤرخين على أن "يوحنا جوتنبرج" هو أول من فكر فى اختراع الطباعة بالحروف المعدنية المنفصلة، وبدأ محاولاته فى مدينة "ستراسبورج" الفرنسية حوالي عام 1436، وطبع الكتاب المقدس باللاتينية عام 1455، وطبعه مرة أخرى بصورة أفضل عام 1460، وانتقلت الطباعة بعد ذلك إلى معظم الدول الأوربية، ووصل عدد المطابع فى أوربا عام 1500 إلى حوالي 250 مطبعة [38].

ويقول "ماكلوهان" في كتابه "مجرة جوتنبرغ" سنة 1962 م أن اختراع الطباعة بالحروف المتحركة ساعد على تشكيل ثقافة أوروبا الغربية في الفترة ما بين 1500 م و1900م فقد شجع الإنتاج الجماهيري للمواد المطبوعة على انتشار القومية لأنه سمح بانتشار المعلومات بشكل أكبر وأوسع وأسرع عما تسمح به الوسائل المكتوبة باليد كذلك أثرت الأشكال السطرية على الموسيقى وجعلتها تتخلى عن التكوين القائم على التكرار وكان الإنسان في عصر النهضة ينظر إلى الحياة كما ينظر إلى المطبوع –كشيء مستمر– كذلك مكن الكتاب المطبوع الناس من التفكير وحدهم وشجع الاكتشاف الفردي [39].

الفقرة الرابعة: عصر وسائل الاتصال الجماهيرية والتفاعلية:

في مطلع القرن التاسع عشر شهدت الإنسانية تطورات هائلة في تطور "**وسائل الاتصال الجماهيري الحديثة**".

ويقصد بالاتصال الجماهيري (Communication du masse) الاتصال الذي تجري عمليته عبر وسائط الجماهيري Média de masse المعروفة: الصحافة والإذاعة والتلفزيون والسينما، حيث يكون المرسل مؤسسة محددة ذات بنيات ومناهج معقدة، ويكون المتلقي جماهير واسعة وغير متجانسة وغفيرة قد تبلغ الملايين من الناس، ويعرف أيضا بالاتصال الإعلامي حيث يتم من خلال وسائل الإعلام المعروفة.[40].

ومن مميزات الاتصال الجماهيري أنه اتصال أحادي الاتجاه وتكون فيه التغذية المرتدة منعدمة أو ناقصة أو بطيئة أو مؤجلة، فهو اتصال غير تفاعلي والجمهور المستهدف به يكون في الأغلب مجهولا لدى القائم بالاتصال

ففي هذه المرحلة ظهرت عدة اختراعات استجابة لعلاج بعض المشكلات الناجمة في الثورة الصناعية ومن بين الاختراعات نذكر **التلغراف** الذي اكتشفه العالم **صمويل موريس** سنة **1837**، ثم **التليفون** لنقل الصوت إلى مسافات بعيدة من طرف **جراهام بيل** سنة **1876**.

وفي مطلع العشرينات من القرن العشرين انطلق البث الإذاعي في الكثير من البلدان، ففي كندا انطلق أول بث نظامي عام 1920، وفي أستًاليا افتتحت أول محطة في ملبورن 1921، وفي بريطانيا أُحدثت شركة البث البريطانية BBC عام 1922، وفي فرنسا بدأ أول بث منتظم وكاف من برج إيفل في العام نفسه[41]،

بخصوص التلفزيون، كانت هيئة الإذاعة البريطانية في بريطانيا، وشركتا سي بي إس والإذاعة القومية بالولايات المتحدة هي الرائدة في تجارب البث التلفزيوني الأولى في العالم، وبدأت هيئة الإذاعة البريطانية

BBC أول بث تلفزيوني منتظم عام 1936 ، وذلك بالبث من قصر ألكسندرا في لندن ;

كما ظهرت الحركة السينمائية في العالم منذ أواخر القرن الثامن عشر، وتحديداً عام 1895، في العاصمة الفرنسية باريس، على يد الأخوين لوميير، بعرضهما 10 أفلام دفعة واحدة، مدّة الواحد منها لم تتجاوز 46 ثانية، لتتوالى نهضة الصناعة السينمائية حول العالم منذ ذلك التاريخ بينما أقيمت أوّل دار عرض سينماتوغرافي في قبو مقهى GRAND CAFEE بباريس، وبعده تمكّن توماس أديسون، من صنع جهاز متطوِّر، وأقام أوّل عرض له عام 1896.

ويُعد «مغني الجاز»، أوّل فيلم ناطق بتاريخ السينما، أحداثه متصِّلة، أخرجه الأمريكي آلان كروساند، ويروي قصّة شاب مغرم بموسيقى الجاز، مدّته 89 دقيقة، وحقّق إيرادات 3.2 مليون دولار، وهو نقطة تحوّل من السينما الصامتة إلى الناطقة [42].

وفي منتصف القرن العشرين واصلت تكنولوجيا الاتصال تدفقها بدخول الإنسان "**عصر تكنولوجيا الاتصال التفاعلي** " نتيجة المزج بين تكنولوجيا الحاسبات الالكترونية والأقمار الصناعية مثل القنوات الفضائية والاتصالات اللاسلكية[43].

وقد تميزت التكنولوجيا الحديثة للاتصال في منتصف الألفية الثانية بقفزة هائلة في وسائل الاتصال، حيث ظهرت ابتكارات جديدة في صناعة الاتصال نتيجة طلب السوق الاستهلاكية وطلب الحصول على خدمات سريعة مثل شراء السلع والمعاملات البنكية... وبالتالي انتشرت خدمات الاتصالات الرقمية وخدمات الهاتف المحمول والبريد الالكتروني، وعقد المؤتمرات عن بعد[44].

ويعتبر ظهور الأقمار الصناعية بداية مرحلة جديدة في تاريخ وتطور وسائل الإعلام

والاتصال، فمن خلال هذا ساعدت الكثير من الوسائل على البروز مثل الكمبيوتر والأنتَرنيت

والتلفزيون الفضائي والبث الرقمي...

وتميزت التكنولوجيا الجديدة بمجموعة من السمات نذكر منها[45]:

- **التفاعلية:** حيث يتبادل القائم بالاتصال والمتلقي الأدوار ويطلق على القائمين بالاتصال لفظ مشاركين بدلا من مصادر، وتكون ممارسة الاتصال مع المتلقي ثنائية الاتجاه وتبادلية.

- **اللاتزامنية:** وتعني إمكانية إرسال واستقبال الرسائل في الوقت المناسب للفرد المستخدم للاتصال، مثلا في حالة البريد الالكتروني يمكن توجيه الرسائل في أي وقت بغض النظر عن تواجد المتلقي للرسالة في وقت معين.

- **الكونية:** حيث أصبحت بيئة الاتصال بيئة عالمية تتخطى حواجز الزمان والمكان والرقابة بفضل الأقمار الاصطناعية.

يسمي "ماكلوهان" المرحلة التي نعيشها حاليا عصر **"الدوائر الإلكترونية"**، كما تتمثل بشكل خاص في

التلفزيون والكمبيوتر فالإلكترونيات بتوسيعها وتقليدها لعمل العقل البشري، وضعت نهاية لأسلوب تجريد الواقع،

وإعادة القبلية للفرد مرة أخرى، مما أحدث نتائج ثقافية واسعة النطاق . يقول "ماكلوهان أن " **الأنماط الكهربائية للاتصال، مثل التلغراف والراديو والتلفزيون والسينما والهاتف والعقول الالكترونية، تشكل هي الأخرى الحضارة في القرن العشرين وما بعده"**، وبينما شاهد إنسان عصر النهضة الطباعة، فإن الإنسان الحديث يجرب قوى كثيرة للاتصال في نفس الوقت، وأصبحت عادة قراءة الكتاب تختلف عن الطريقة التي ننظر بها إلى الجريدة، ففي حالة الجريدة لا نبدأ بقصة واحدة نقرؤها ثم نبدأ قصة أخرى، ولكن تنتقل أعيننا في الصفحات لتستوعب مجموعة غير مستمرة من العناوين والعناوين الفرعية والفقرات التي تقدم الموضوعات والصور والإعلانات [46].

كما صرح ماكلوهان في كتابه " الوسيلة هي الرسالة" أننا نعيش في قرية عالمية وأن الوسائل الإلكترونية الحديثة ربطت كلا منا بالآخر، وبالتالي فإن المجتمع البشري لن يعيش في عزلة بعد الآن، وهذا يجبرنا على التفاعل الجمعي والمشاركة، فقد تغلبت الوسائل التكنولوجية على قيود الوقت والمسافة [47]. ذلك أن وسائل الإعلام الإلكترونية ساعدت في انكماش الكرة الأرضية وتقلصها في الزمان والمكان، حتى أصبحت توصف بالقرية العالمية.

خاتمة:

يتضح مما سبق أن تطور وسائل الاتصال جسد فكرة ماكلوهان حول القرية العالمية، فهذا التطور استطاع أن يكسر الحدود ويقرب المسافات الزمكانية نحو عالم موحد ومتصل ضمن شبكة اتصال عالمية ووفق قوانين متفق عليها عالميا وفق اتصال تفاعلي فوري مسخرا لهذا الغرض كل أحدث الاختراعات التي توصل إليها الإنسان.

كما ساهمت وسائل الاتصال عبر مر التاريخ في ازدهار المجتمعات وتطورها نحو علم المعرفة والاتصال التكنولوجي، فلكي نفهم التغيرات الاجتماعية والثقافية التي تطرأ على المجتمعات يجب فهم الأسلوب الذي تعمل بمقتضاه وسائل الاتصال في تلك الحقبة، فبفضل تطورها، اخترع الإنسان الحاسوب الآلي والأقمار الصناعية وشباكات التواصل الاجتماعي وأصبح العالم الرقمي يتيح فرص عمل ويستقطب استثمارات كبرى، كما أن القيمة السوقية لشركة.

الهوامش:

[1]– ميلودي عبد العزوزي،" الاتصال المؤسساتي، سياساته، تطبيقاته، إدارته"، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2007، ص: 57.

[2]– محمد بن مكرم بن منظور الافريقي المصري جمال الدين أبو الفضل، لسان العرب، دار صادر بيروت، المجلد الأول، الطبعة الثالثة 1414هـ، ص 59

[3] – نورالدين رايص، اللسانيات المعاصرة في ضوء نظرية التواصل الطبعة الأولى. الناشر اربد: عالم الكتب الحديث، تاريخ الإصدار، 2014. ص 20

[4] – بسام عبد الرحمن المشاقبة، **نظريات الاتصال**، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، سنة 2010 ط1، ص23.

[5] – نورالدين رايص ، اللسانيات المعاصرة في ضوء نظرية التواصل، مرجع سابق . ص 27

[6]– ميلودي عبد العزوزي،" الاتصال المؤسساتي، سياساته، تطبيقاته، إدارته"، مرجع سابق. ص 59.

[7]–Jean-Marc Lehu, «l'encyclopédie du marketing», Edition, d'organisation, Paris, 2004, P.163.

[8]– محمد الصيرفي، "الاتصالات الادارية"، مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع، مصر 2006، ص: 15.

[9] – محمد الصيرفي، مرجع سابق، ص 16

[10] – محمد الصيرفي، مرجع سابق، ص 17

[11]– نور الدين درايص، نظرية التواصل واللسانيات الحديثة، مطبعة سايس–فاس، ط1، 2007م، ص: 52.

[12]– د. نعمة دهش فرحان الطائي، "النظرية التواصلية (مقاربة في النشأة والمفهوم والإجراء)"، العدد الخاص بالمؤتمر العلمي الخامس، 2017، ص: 133.

[13] – تصميم شخصي

[14]– د. محمود حسين إسماعيل، مرجع سابق، ص: 95.

[15]– د. محمد مرزوق، مرجع سابق، ص: 9.

[16]– د. محمود حسين إسماعيل، مرجع سابق، ص: 96.

[17]– د. حسن عماد مكاوي وليلى حسين السيد، مرجع سابق، ص48.

[18]– د. محمود حسين إسماعيل، مرجع سابق، ص: 121.

[19]– د. محمود حسين إسماعيل، مرجع سابق، ص: 113.

[20]– د. محمد مرزوق، "التواصل الاداري، مرجع سابق، ص: 11.

[21]– د. حسن عماد مكاوي وليلى حسين السيد، مرجع سابق، ص: 50.

[22]– د. محمد مرزوق، مرجع سابق، ص: 12-13.

[23]– د. حسن عماد مكاوي وليلى حسين السيد، مرجع سابق، ص: 53.

[24]– د. حسن عماد مكاوي وليلى حسين السيد، مرجع سابق، ص: 51.

[25]– أحمد عزوز، "الاتصال ومهاراته: مدخل إلى تقنيات فن التبليغ والحوار والكتابة"، منشورات مختبر اللغة العربية، طبعة 2016. ص 77

[26] Mc Luhan (Marshall), **Pour comprendre les media**, Paris, Main, 1968, p 404.

[27] – د.مفتاح ميلاد الهديف، مراحل تطور اللغة كأداة من أدوات التواصل الاجتماعي عبر التاريخ، مجلة التربية الرياضية والعلوم الأخرى، العدد العاشر شتنبر 2023- 2022 ص: 103.

[28] – هاشم أشعري، نظرية نشأة اللغة وتفرعها في الثراث العربي، مجلة التدريس: المجلد الخامس، العدد الأول – يونيو 2017ص 100

[29] د.مفتاح ميلاد الهديف، مرجع سابق ص 105

[30] – محمد بن ابراهيم الحمد، فقه اللغة مفهومه – موضوعاته – قضاياه، الطبعة الأولى 2005، الجزء والصفحة: ص 56 – 59

[31] – محمد بن ابراهيم الحمد، فقه اللغة مفهومه – موضوعاته – قضاياه، مرجع سابق ص 59

[32] - POPPER (François), **Les trans-interactif**, Paris, SNVPO, Coll Déchifrage, 1989, p 39.

[33]- POPPER (François), **Les trans-interactif**, **O P P 40**.

[34]– د. حسن عماد مكاوي وليلى حسين السيد، مرجع سابق، ص: 96.

[35] د. حسن عماد مكاوي وليلى حسين السيد، مرجع سابق، ص: 97

[36] 2- Mc Luhan (Marshall), **La galaxie de Gutenberg face à l'électronique**, Tours, Maine, 1972, p 349.

[37]– د. حسن عماد مكاوي وليلى حسين السيد، مرجع سابق، ص: 97

[38] – حسني إبراهيم عبد العظيم، مقدمة في سوسيولوجيا الاتصال، دار الكتاب الجامعي – القاهرة، الطبعة 1ص 46

[39] -EIESENTEIN (Elizabeth), La révolution de l'imprimé dans l'Europe des premiers temps modernes, Paris, La
découverte, 1999, p 101-103.

[40]– ميلودي عبد العزوزي، مرجع سابق، ص: 85.

[41] – مرشد عبدالصافي، الإعلام الإذاعي والتلفزي، الطبعة الأولى 2017

[42] مها عادل، متى بدأت السينما في العالم؟ مقال منشوربتاريخ17 أكتوبر 2022 22:13 مساء على الموقع الالكتروني www.alkhaleej.ae

[43]– د. حسن عماد مكاوي وليلى حسين السيد، مرجع سابق، ص: 90.

[44]– د. حسن عماد مكاوي وليلى حسين السيد، مرجع سابق، ص 100.

[45]– د. حسن عماد مكاوي وليلى حسين السيد، مرجع سابق، ص 107.

[46] – نورالدين تواتي، ماكلوهان مارشال... قراءة في نظرياته بين الأمس واليوم، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، العدد 10:مارس2013 ص . 182

[47] – عبدالرزاق محمد الدليمي، الإعلام في ظل التطورات العالمية، دار النشر اليازوري العلمية، عمان 2019 ص 95-94